فـ نتي تمنـيت ا اليوم خـمـر وغدا أمـر ، ولكني تمنيت ، وأنا بين الصـحـو والنعس ، أن أنام كأهل الكهف ثلاثمائة عام .

في يومي التاسع والعـاشر من يونيـة ١٩٦٧ أعـدنا عـبـد النـاصـر ، قلنا له ارجع ، نريدك ، نحن بحاجة إليك ، وأرجعناه ، لكننا في الثامن والعشرين من سبتمبر ، رغم كثرتنا الهائلة والأكبر من المرة السابقة ، لم نستطع أن نعيده . ساعتها كنت أمشي مضطربا ، عاتبا عليه ، حزينا على رحيله ، يلّح عليّ أخي إلى حد أنني كنت أمدّ يدي قليلا كأنه سينتبه فيمسك بها فنمشي سويا بنفس حطوة في الزحـام . أدرك ما لم أدرك ساعـتها من حجم الناس ، لأن الأفلام التسـجـيلية التي التقطت لذلك اليـوم تظهـر حـركـة النعش الملفـوف بالـعلم والمسـجى على عربة مدفع ، سـابحة في فـيض الشـوارع والميـادين والجسـور ، ضاعت حدودها فتحولت إلى مكان واحد لمشهد واحد اجتمع فيه أهل البلد ليشيعوا ابنهم ، وفي الوداع الأخـير يغـمـرون نعشـه ، ثم يرفعـونه ، يطفـو ، يحتضنونه فيغمرونه من جديد ، ولكنه يعود يطفو ويطير فوق الرءوس ؛ لأنه راحل لا يملك البقاء .

رحل ، وجدّت في غيابه أحداث كثيرة قاسية ، وكثيرا ما أتساءل إن كان الموت رحمةً يحجب تلك الأحداث عنه ، أم سجنا يتيح له أن يرى ولا يسـمـح له بالحركة أو حتى بالكلام؟ أتساءل إن كان يراجع نفسه وهو يتـأمل حسـاب المكسب والخسـارة ، أم يحـرمـه الموت من نعـمـة البـصـر ويحـوله إلى رهين لمحبسين؟ وكثيرا ما أفكر إن كان الموت ثبته في منتصف العمر كما كان لحظةً رحيله ، أم كبره ، كما كبر أخي ، فصـار شيخا في الرابعة والثمـانين من عمـره ناحل الجسم وإن احتفظ بقسـمات وجهه ونظرة عينيه التي لا يخطئها أي منا ، نحن الذين نشأنا وتربينا في فترة ولايته!

أعترف أنني لم أغفر له . داهمني موته وأنا مشتبك معه ، أسائله بقسـوة ـ ماذا تفعل لو داهم الموت والدك في لحظة شجار ارتفع فيها صوتك عليه وأنت